٢- باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب

وَقالَ تَعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل: ١٢٠].

وَقالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [المؤمنون: ٥٩].

عَنْ حُصَيْنِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ رَأَى الْكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَّ الْبَارِحَةَ؟ فَقُلْتُ: أَنَا. ثُمَّ قُلْتُ: أَمَّا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ، وَلَكِنِّي لُدِغْتُ. قَالَ: فَمَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: ارْتَقَيْتُ. قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟ قُلْتُ: حَدِيثٌ حَدَّثَنَاهُ الشَّعْبِيُّ. قَالَ: وَمَا حَدَّثَكُمْ؟ قُلْتُ: حَدَّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ الْحُصَيْبِ أَنَّهُ قَالَ: «**لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ**»(١). فَقَالَ: قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ. وَلَكِنْ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ! إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ. فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ**

(١) أخرج هذه الجملة - مرفوعة - أبو داود في «السنن» (٣٨٨٤)، والترمذي (٣٨٨٤)، وصححها الألباني.

لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ». ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ، فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُولَئِكَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمْ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمْ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ فَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا. وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ. فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ فَقَالَ: «هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ». فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ، فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ. قَالَ: «أَنْتَ مِنْهُمْ». ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ. فَقَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ»(١).

○○○

الشرح:

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب آيتين وحديثا واحدا.

والكلام على هذا الباب في ثلاثة فصول:

* * *

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٥٧٠٥) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٢٠).

الفصل الأول: مقصود الباب، وموضوعه العام

هذا الباب كالمُتَمِّم للباب الذي قبله؛ فإنه لما ذكر فضل التوحيد، ذكر ما يحصُل به تحقيقه، وما يترتب على ذلك من كمال الفضل الذي يكون لخواص هذه الأمة، وذلك من فضل التوحيد - أيضا -، لكنه فضل خاص لطائفة خاصة من الموحدين.

وقوله ﷺ: «**بغير حساب**»: اعلم أن الناس يوم القيامة - من جهة الحساب - ثلاثةُ أصناف:

أولا: من يُحاسَب حسابا عسيرا: بأن يُناقَش ويُستقصى عليه. وهذا خاصٌّ بالكفرة والمشركين، وبعض عصاة الموحدين.

ثانيا: من يُحاسَب حسابا يسيرا: بأن تُعرض عليه ذنوبه ويُقَرَّر بها، ثم يتجاوز الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنها. وهذا معنى قوله تبارك وتعالى: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨**﴾ [الانشقاق: ٧- ٨].

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ قال: «**لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسَبُ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلَّا هَلَكَ**» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللَّهُ - تَعالى -: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨**﴾ [الانشقاق :٧- ٨]، فَقَالَ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّمَا ذَلِكِ العَرْضُ، وَلَيْسَ أَحَدٌ يُنَاقَشُ الحِسَابَ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلَّا عُذِّبَ**»(١).

ثالثا: من يدخل الجنة بغير حِساب: وهم الصفوة الأخيار المذكورون في الحديث، نسأل اللهَ أن يجعلنا منهم.

* * *

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٦٥٣٧) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٨٧٦).

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

المبحث الأول: معنى تحقيق التوحيد، وبم يكون؟

تحقيق التوحيد قدر زائد على أصل التوحيد، فهناك مَن معه أصل التوحيد، وهناك آخر أعلى قدرا، وهو من حقَّقَ التوحيد.

وتحقيق التوحيد: تهذيبه وتصفيته من كل ما يُكدِّرُه.

وتحقيق التوحيد على وجهين[1]:

أولا: القدر الواجب: ويكون ذلك بتخليص التوحيد وتصفيته من شوائب الشرك والبدع والمعاصي؛ لأن الشرك ينافي التوحيد، والبدع تنافي كماله الواجب، والمعاصي تقدح فيه وتُنقِص ثوابه، فلا يكون العبد محقِّقا للتوحيد حتى يَسْلَم من الشرك بنوعيه، ويسلم من البدع والمعاصي.

ثانيا: القدر المندُوب: وهو تحقيق المقرَّبِين الذين تركوا ما لا بأس به حذرا مما به بأس. وحقيقة هذا النوع: انجذاب الروح إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بحيث لا يكون في القلب شيء لغيره - سبحانه -، وهذه مرتبة عزيزة!

والخلاصة أن تحقيق التوحيد: الإتيان به على كماله.

مسألة: وسائل تحقيق التوحيد:

لا بد لتحقيق التوحيد من ثلاثة أمور[2]:

---

(١) ينظر: «حاشية كتاب التوحيد لابن قاسم» ص٣٧.

(٢) ينظر: «القول المفيد» (١/ ٨٥).

أولا: العلم: لأنه لا يمكن أن تُحقِّق شيئا لا تعلمه، قال تعالى: ﴿**فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ**﴾ [محمد:١٩]، فمن أراد تحقيق التوحيد فلا بد أن يبدأ بتعلُّم التوحيد كما جاء في الكتاب والسنة.

ثانيا: الاعتقاد: فمن علِم ولم يعتقد فقد استكبر، وقد ذكر الله – عز وجل – عن الكافرين أنهم قالوا: ﴿**أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥**﴾ [ص:٥]، فهم علِموا لكنهم لم يعتقدوا، فلم ينفعهم ذلك شيئا.

ثالثا: الانقياد: فلا يكفي العلم والاعتقاد، بل لابد من الانقياد والعمل، وهذه ثمرة العلم.

ومن أراد تحقيق التوحيد فلا بد له – أيضا – من الاستعانة بربِّه، مع مجاهدة النفس ومحاسبتها، والموفَّق من وفقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. ومن حقَّق التَّوحيد، فإنَّ الجنة دارُه بغير حساب ولا عذاب، نسأل الله – عزَّ وجلَّ – من فضله.

○○○

المبحث الثاني: القَوادِح في تحقيق التوحيد:

القوادح في تحقيق التوحيد أربعة:

أولا: الشرك الأكبر الذي ينافي أصل التوحيد.

ثانيا: الشرك الأصغر، الذي ينافي كمال التوحيد الواجب.

ثالثا: البدع التي تقدح في التوحيد.

رابعا: المعاصي التي تخدش التوحيد وتُنقِص ثوابه.

○○○

المبحث الثالث: هل تعد المعاصي من الشرك؟

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المعاصي بالمعنى الأعم شرك؛ لأنها صادرة عن هوى مخالف للشرع، وقد قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[الجاثية:٢٣].

أما بالنسبة للمعنى الأخص، فيقسمها العلماء قسمين: شرك وفسوق.

وتحقيق التوحيد لا يكون إلا باجتناب الشرك بالمعنى الأعم، ولكن ليس معنى هذا ألا تقع منهم المعاصي؛ لأن كل ابن آدم خطاء، وليس بمعصوم، ولكن إذا عصوا، فإنهم يتوبون ولا يستمِرُّون عليها»(١).

وقال ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تحقيق التوحيد: تهذيبُه وتصفيته من الشرك الأكبر والأصغر، ومن البِدَع القولية الاعتقادية، والبدع الفعلية العملية، ومِن المعاصي. وذلك بكمال الإخلاص لله في الأقوال والأفعال والإرادات، وبالسلامة من الشرك الأكبر المناقض لأصل التوحيد، ومن الشرك الأصغر المنافي لكماله، وبالسلامة من البدع والمعاصي التي تُكَدِّر التوحيد، وتمنع كماله وتعوقه عن حصول آثاره. فمن حقق توحيده بأن امتلأ قلبه من الإيمان والتوحيد والإخلاص، وصَدَّقَتْه الأعمال بأن انقادت لأوامر الله طائعة مُنِيبة

(١) «القول المفيد» (١/ ٩٠)، وانظر منه أيضا: (١/ ٦١)، و«لقاءات الباب المفتوح» (١٣/١٩٢).

مُخْبِتَة إلى الله، ولم يجرح ذلك بالإصرار على شيء من المعاصي، فهذا الذي يدخل الجنة بغير حساب»[1].

وقال ابن رجب: «اتِّباع هوى النفس فيما نهى الله عنه قادح في تمام التوحيد وكماله، ولهذا أطلق الشرع على كثير من الذنوب التي منشؤها من هوى النفس أنها كفر وشرك، كقتال المسلم، ومن أتى حائضا أو امرأة في دُبُرها، ومن شرب الخمرة في المرة الرابعة، وإن كان ذلك لا يخرجه عن الملة. ولهذا قال السلف: كفر دون كفر، وشرك دون شرك. وقد ورد إطلاق الإله على الهوى المتبع، قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية:٢٣]»[2].

ومما سبق يتبين أن من وقع في كبيرة من الكبائر كالربا والزنا؛ لا يقال: إنه مشرك، لكنه لم يحقِّق التوحيد، فتحقيق التوحيد قدر زائد على أصل التوحيد، كما سبق.

ولا يُفهم أن منزلة تحقيق التَّوحيد يشترط لها ألا يعصِي الله، فليس أحد من البشر معصوما، وإنما المُراد أنه يجتنب المعاصي، وإذا وقع في شيء منها بحكم الضعف البشريِّ والشهوة المركبة؛ فإنه يبادر بالتوبة والندم.

---

(١) «القول السديد» لابن سعدي ص٢٩.

(٢) «كلمة الإخلاص» ص٢٣.

وإني لأراك - أيها الموحد - ممن يلهج بكلمة التوحيد صباح مساء، وإنَّ لي معك وقفة:

هل تأملت يوما هذه الكلمة العظيمة، وأجلت فكرك فيها؟

إنها تقتضي أن لا إله لك غير الله، والإله هو الذي يطاع فلا يُعصى هيبة له وإجلالا، ومحبة وخوفا، ورجاء وتوكلا عليه، ولا يصلح ذلك كله إلا لله - عز وجل -.

وأما من تعلَّق قلبُه بغير الله جَلَّجَلَالُهُ حتَّى ألهاه عن طاعة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فهذا نوع عبادة لغير الله - تعالى - وشرك به - سبحانه -، كما قال ﷺ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ ...**»(١).

فسماه عبدا للدينار والدِّرهم مع كونه لم يسجد للدينار، ولم يذبح له! وإنَّما لأنه توجَّه بقلبه إليه، وتعلق به، بحيث صار يصبح ويمسي وهمُّه الدرهم والدينار.

وأيضا فقد سمى الله - تعالى - طاعة الشيطان في معصية الله «عبادة»، كما في قوله - تعالى -: ﴿**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ٦٠**﴾ [يس:٦٠].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٣٥).

ومن هنا فإنه يجب على الموحِّد أن ينتبه إلى أنَّ تحقيق التوحيد والعبودية التامة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يكون إلا بتمام انشغال القلب بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وجمع الهم على أمر الآخرة!

نسأل الله أن يملأ بذلك قلوبنا ..

* * *

الفصل الثالث: التعليق على النصوص، وربطها بالباب

النص الأول: قولُ الله - تعالى -: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٠].

قوله - تعالى -: ﴿أُمَّةً﴾، أي: إماما وقدوة ومعلِّما للخير. ويُحتمل أنه وُصِف بالأُمة لما اجتمع فيه من صفات الخير التي لا تجتمع إلا في أُمة.

والقولان متلازمان؛ فإنه أُمة على الحق وحده، وإمام لجميع الحُنفاء، يقتدون به في ما كان عليه من الخير.

وقوله: ﴿قَانِتًا﴾، أي: خاشعا مطيعا. والقنوت دوام الطاعة.

وقوله: ﴿حَنِيفًا﴾، أي: مائلا عن الشرك إلى التوحيد.

وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: فارقهم بالقلب واللسان والبدن، وأنكر ما كانوا عليه من الشرك، وما ذاك إلا من أجل تحقيقه التوحيد، وقد قصَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علينا قوله ﷺ لقومه: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ [الزخرف:٢٦]، وقوله: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم :٤٨].

ومناسبة الآية للترجمة: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وصف خليله بهذه الصفات التي هي الغاية في تحقيق التوحيد، وقد أمرنا بالتأسي والاقتداء به، فقال:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ...﴾ [الممتحنة:٤]، ثم ذكر مآله فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة :١٣٠]؛ استجابةً لدعائه: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الشعراء :٨٣].

وقال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾؛ لئلا يَستوحش سالك الطريق من قلة السالكين، ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾، لا للمُلوك ولا للتجار المترفين. ﴿حَنِيفًا﴾: لا يميل يمينا ولا شمالا، كفعل العلماء المفتونين. ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، خلافا لمن كثَّر سوادهم، وزعم أنه من المسلمين.

○○○

النص الثاني: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون:٥٩].

هذا وصف للمؤمنين السابقين إلى الجنة، حيث أثنى عليهم بهذه الصفات الحميدة، فقال جلَّ ذكرُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٥٩]، فذكر من صفاتهم هذه الآية التي تدل على إخلاصهم، وسلامتهم من الشرك قليلِه وكثيره، صغيره وكبيره.

وهذا في مقام الثناء، والحث على الاقتداء.

○○○

النص الثالث: عن حُصَينِ بن عبد الرحمن قال: كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ رَأَى الْكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَّ الْبَارِحَةَ؟ فَقُلْتُ: أَنَا. ثُمَّ قُلْتُ: أَمَّا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ، وَلَكِنِّي لُدِغْتُ. قَالَ: فَمَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: ارْتَقَيْتُ. قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟ قُلْتُ: حَدِيثٌ حَدَّثَنَاهُ الشَّعْبِيُّ. قَالَ: وَمَا حَدَّثَكُمْ؟ قُلْتُ: حَدَّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ الْحُصَيْبِ أَنَّهُ قَالَ: «**لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ**». فَقَالَ: قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ. وَلَكِنْ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ! إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ. فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ**». ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ، فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُولَئِكَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمْ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمْ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ فَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا. وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ. فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: «**هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**». فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ. قَالَ: «**أَنْتَ مِنْهُمْ**». ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ. فَقَالَ: «**سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ**»[1].

---

(١) تقدم تخريجه.

هذا الحديث يذكر فيه حُصَين بن عبدالرحمن أنهم كانوا عند سعيد بن جبير – وهو من أئمة التابعين ومشاهير المفسرين، من تلاميذ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – ، فقال سعيد: «أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة؟» فقال حصين: «أنا»، ثم استدرك خشيةَ أن يُفهم أنه كان يصلي في الليل، وهذا من حرصهم على الإخلاص وبعدهم عن الرياء، فقال: «أما إني لم أكن في صلاة»، يعني لا تفهموا أني كنت أصلي، لكني كنت مستيقظا؛ لأني لدغت! فقال سعيد: «فما صنعت؟» قال: «ارتقيت»، يعني طلبت الرقية، قال: فما حملك على ذلك؟ فذكر مستنده، وهو حديث: «**لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ**»[1]، والحُمَة (بضم الحاء وتخفيف الميم المفتوحة) هي: سُم ذوات السُّم، كالحية والعقرب. ومعنى: «**لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ**»: لا رقية أولى وأشفى.

الطِيرة: التشاؤم بمَرئيٍّ، أو مسموع، أو زمان، أو مكان. وأفرد لها المؤلف بابا.

وقوله ﷺ: «**وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**»: قال ابن قاسم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وعطفه [التوكُّل] على تلك من عطف العام على الخاص؛ لأن كل واحدة منها صفة خاصة من التوكل، وهو أعم من ذلك»[2].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «حاشية كتاب التوحيد» ص٤٦.

ودل الحديث على أن طائفة من هذه الأمة يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وذاك لكمال توحيدهم وتحقيقهم له.

إشكالات حول الحديث:

أولا: الجمع بين الخبرين في هذا الحديث «**لَا رُقْيَةَ إِلَّا ...**» وقوله ﷺ: «**لَا يَسْتَرْقُونَ**»، حيث أثبت الرقية في الأول، ونفاها في الثاني؟

والجواب:

الإنسان له ثلاثة أحوال من حيث الرقية: إما أن يرقي غيره، أو يُرقَى من غير طلب، أو يسترقي (أي: يطلب الرقية من غيره).

والحديث الأول فيمن رَقَى ورُقِي من غير طلب، والثاني في من طلب الرقية (استرقى).

والنبي ﷺ رَقى[1] ورُقِي[2]، ولم يَسْتَرقِ.

والفرق بين الراقي والمسترقِي: أن المسترقِيَ سائل مُسْتَعْطٍ ملتفِتٌ بقلبه إلى غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بينما الراقي محسن. وإنما المراد وصف السبعين ألفا بتمام

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ينظر: صحيح البخاري (٣١٩١ و٤٧٢٨)، وصحيح مسلم (٢١٩٢)، وغيرها كثير.

التوكل؛ لأنهم لا يسألون غيرهم أن يرقيهم لقوة اعتمادهم وتعلُّقهم بالله -تعالى-، ولا يُفهم من هذا أن الاسترقاء محرم.

ثانيا: الجمع بين ما يُفيده الحديث من ترك سؤال المخلوق، وما ورد من السؤال؟

والجواب:

سؤال المخلوق نوعان[1]:

الأول: سؤال ليس فيه استعطاف ولا تذلل، ولا إحساس برفعة المسؤول على السائل. كسؤال الابن والخادم والصديق والزوجين فيما بينهما ونحوه. وعليه يحمل ما ورد من سؤاله ﷺ لأزواجه وأصحابه.

الثاني: سؤال فيه استعطاف وتذلُّل، وهذا هو الذي يُنقِص تحقيق التوحيد.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن سؤال المخلوقين فيه ثلاث مفاسد: مفسدة الافتقار إلى غير الله، وهي من نوع الشرك. ومفسدة إيذاء المسؤول، وهي من نوع ظلم الخلق. وفيه ذل لغير الله وهو ظلم النفس»[2].

ثالثا: الجمع بين ما ورد في الكي؟

---

(١) ينظر: «الجمع والتجريد» ص٧٧.

(٢) «قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة» ص٧٢.

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النبي ﷺ قال: «**الشِّفَاءُ فِي ثَلاثَةٍ: شَرْبَةِ عَسَلٍ، وَشَرْطَةِ مِحْجَمٍ، وَكَيَّةٍ نَارٍ. وَأَنْهَى أُمَّتِي عَنِ الكَيِّ**»(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «قد تضمنت أحاديث الكي أربعة أنواع: أحدها: فعله، والثاني: عدم محبته، والثالث: الثناء على من تركه، والرابع: النهي عنه. ولا تعارض بينها؛ فإن فعله له يدل على جوازه، وعدم محبته لا يدل على المنع منه، وأما الثناء على تاركه فيدل على أن تركه أولى وأفضل، وأما النهي عنه فعلى سبيل الاختيار والكراهة، أو عن النوع الذي لا يُحتاج إليه، بل يُفعل خوفا من حدوث الداء»(٢).

ومراد ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ بفعله: فعلُه ﷺ بغيرِه، كما قال جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: رُمِيَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فِي أَكْحَلِهِ، قَالَ: «فَحَسَمَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِيَدِهِ بِمِشْقَصٍ، ثُمَّ وَرِمَتْ فَحَسَمَهُ الثَّانِيَةَ»(٣).

وأمَّا هو ﷺ فلم يثبت أنَّه اكتوى قطُّ. قال الحافظ ابن حجر: «لم أر في أثر صحيح أن النبي ﷺ اكتوى»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٥٦٨٠، و٥٦٨١).

(٢) «زاد المعاد» (٤/ ٥٨).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٠٨). والحَسْم هو الكي.

(٤) «الفتح» (١٠/ ١٦٤).

رابعا: هل يدل الحديثُ على عدم مباشرة الأسباب؟

«الحديث لا يدل على أنهم لا يباشرون الأسباب أصلا؛ فإن مباشرة الأسباب في الجملة أمر فطري ضروري، بل نفس التوكل مباشرة لأعظم الأسباب، وإنما المراد أنهم يتركون الأمور المكروهة مع حاجتهم إليها؛ توكُّلا على الله، كالاكتواء والاسترقاء. وأما مباشرة الأسباب والتداوي على وجه لا كراهة فيه، فغير قادح في التوكل، فلا يكون تركه مشروعا»[1].

قلتُ: وهذا الكلام إنَّما يراد به بعض ما تركوه لا جميعه؛ فإنَّ «التطيُّر» من جملة الأمور التي نصَّ عليها الحديث، وهو من المحرَّمات لا المكروهات.

○○○

مسألة: كثرة من يدخل الجنة من هذه الأمة:

جاء في الأحاديث ما يدلُّ على كثرة من يدخل الجنة من هذه الأمة مُقارنة بغيرها من الأمم، ومِن ذلك حديث أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّةِ**»، فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: «**أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ**» فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: «**أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الجَنَّةِ**»،

(١) «حاشية كتاب التوحيد» لابن قاسم ص٤٦.

فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: «**مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ إِلَّا كَالشَّعَرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَبْيَضَ، أَوْ كَشَعَرَةٍ بَيْضَاءَ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَسْوَدَ**»(١).

وصحَّ كذلك عددٌ من الأحاديث التي تدلُّ على أنَّ الذين يدخلون الجنة بلا حساب يزيدون على سبعين ألفا(٢)؛ ومنها:

عن أبي أُمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**وَعَدَنِي رَبِّي أَنْ يُدْخِلَ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا لا حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلا عَذَابَ، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا وَثَلاثُ حَثَيَاتٍ مِنْ حَثَيَاتِهِ**»(٣).

وعن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «**أُعْطِيتُ سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وُجُوهُهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَقُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَاسْتَزَدْتُ رَبِّي - عَزَّ وَجَلَّ -، فَزَادَنِي مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ سَبْعِينَ أَلْفًا**»(٤).

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٣٤٨) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٢٢).

(٢) تتبعها الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في «فتح الباري» (كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفا بغير حساب).

(٣) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢٤٣٧)، وابن ماجه (٤٢٨٦)، وصححه الألباني.

(٤) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٢)، وأبو يعلى (١١٢)، وقال محققو «المسند» (١/٢٠٣): «إسناده ضعيف لجهالة الرجل الراوي عن أبي بكر، والمسعودي اختلط» اهـ. وله شاهد مرسل أخرجه الضياء المقدسي في «المختارة» (٣/٢٧٨)، وضعف الألباني سندَه في «الصحيحة» (١٤٨٤) لكنه صححه لشواهده، وذكر منها شاهدا واحدا، لكن بلفظ: «مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعِينَ أَلْفًا»! وساق شواهده جاسم الدوسري في «النهج السديد» ص٤٠.

فالحاصل أنهم سبعون ألفا مع كل ألف سبعون ألفا، فيصير العدد قرابة خمسة ملايين (٤٩٧٠٠٠٠)، وثلاث حثيات، الله أعلم بقدرها، جعلنا الله منهم بمنِّه وكرمه.

* * *